معركة على عروس

لكاتب الفرنسي جوستاف جيفروا

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

في شارع جارنت الذي يتفرع من شارع رامبارديه بحي بيراش بمدينة ليون الزاهرة ذات الشوارع الضيقة والجسور الفسيحة والكنائس الشامخة، حانوت صانع الأثاث إرمان موتون.

في صباح يوم الأربعاء السابق لعيد البنتكوت نادى المعلم موتون صبيه شارل شفارز وكان عاملاً ألمانيا من ستراز بورج:

« أي شارل! إذهب إلى دار مدام ديلوم، فانها ستعطيك كرسياً «لوى كاتورز» يحتاج إلى التنجيد وقد خبرتها أني مرسلك اليوم فامض على عجل » فمضى شارل في شأنه وهو يصفر، حتى إذا مر بدكان الحلوى المواجه لدار معلم موسيو موتون مال إليه وانفلت من الباب الصغير، حيث كانت صديقته الصغيرة ليونى تصنع قطعاً من الشكولاته في وعاء معدني كبير، وكانت ليونى غضة بضة مثل لمطة القشدة، وكانت عارية الذراعين والنحر والصدر إلى منبت النهدين، لضرورة العمل، وقد ائتزرت بمئزر قصير لا يصل إلى منتصف الساق، وقد انسدلت ضفائرها

تعريف بالقصة

جوستاف جيفروا قصاص فرنسي قدير، اشتهر بالقصة القصيرة والمسرحيات الموفقة وهو يدرس في هذه القصة خلق بعض الشبان والفتيات في مدينة من أعرق مدن فرنسا، اشتهرت بالجمال وحب الاستمتاع في هدوء وغموض وهي ليون وقد كشف القناع عن عفة الفتاة وخور المرأة، وشح التجار. وقد قيل عند نشرها إنها رمزية تحلل نفسية الألمان ذوي الجبروت وقوة الارادة، فتراهم لا يترددون أبداً دون تحقيق أمانيهم مهما كلفهم ذلك من القسوة على الآخرين وهي تنقل إلى العربية للمرة الأولى لقراء الرواية فعسى تحوز رضاهم

المسجدية على ظهرها المنحنى. فلما رأته ضحكت وقالت له: حذار أن تكون « البجمة » قد لمحتك. والبجمة صاحبة الدكان مدام كرنك دولاك السمينة الضخمة التي التقطتها وتبنتها وتعهدتها ووهبتها نصف ما تملك لتكون بائنة لها عند الزواج. ولكن ليونى كانت تبغضها وتخشاها وتحقد عليها وتشكو قيود العفة والحذر التي فرضتها عليها لتصونها من أخطار الحياة.

فابتسم شارل وقال: كلا! إنها مشغولة بمحاسبة بعض عملائها وسمعتها تعنف الكتبي كنزلو وتتهمه بأنه التهم سبع فطائر ولا يدفع إلا ثمن أربع، وقد جحظت عيناها وهي تقول له: تأكل السحت في بطنك أيها العنكبوت الضئيل وتزداد نحولاً كلما أدخلت بطنك فطائري المختلسة! ألا لأني ائتمنتك وفتحت لك صناديق دكاني وتشاغلت عنك بغزلي.. إن عين التاجر لا تنعس.

فضحكت ليونى وألقت بجسمها الناعم اللين بين يدي شارل هامسة:

— قبلة الصباح ياحبيبي، متى أغادر ذلك الجحر الخرب، لأبقى لك طول حياتي!.. فضمها الفتى إلى صدره بعنف الرغبة، وقبلها في وجنتيها وفمها وعينيها ونحرها، وكانت تتوجع متلذذة وهو يلثم فاها، ويكاد يغرس أظافره في كتفيها، فلما أفاقت من

غشية الحب السريع المفاجىء ، ملأت فمه بالشوكولاته المحشوة باللوز والبندق والجوز الدسم ، وناولته علبة من الورق المقوى ملأى باللبس الفاخر الذى يصنع خصيصاً لعبد البنتكوت . وقالت له : عليك أن تخرج فى حذر ثم تدخل على البجمة بعد لحظة اتتاكد أنها لم ترك . فدس العلبة فى جيبه وانسل وسار قدماً وهو يصفر أنغاماً من أوبرا لوهنجرن ، سمعها والتقفها من غناء ريديز التينور (١) الشهير . فلما دنا من عتبة الحلوانية انحنى وحيّا وكان كنزلو لايزال مستسلماً لمطر الشتائم الذى ينهال على رأسه من سماء مدام كرنك دولاك

— ياذيل الخنوص ، ياجبة الرياء ! ياجرذ الحوانيت ! مادمت لاتملك عن الفطائر السبع ، فلِمَ تسارع إلى ابتلاعها ؟ وكان وجه الكتبي مصفراً كالكركم الصيني وهو يقول :

— مدام كرنك . أقسم لك بسانت فورفيير ! أنها أربع فطائر فقط لم تَزِد . إننى بطىء المضغ . اسألى الدكتور مويسيه طبيب عائلتى . شقى بطنى إن شئت ، ولكن كفى بحق العذراء عن تقريعى أمام الجمهور .

فقالت له : إن كنت تستحى حقاً من الجمهور فلم تصنع فى الخفاء مالا يليق بكرامتك فى العلانية ؟ ألم تفد شيئاً من الكتب التى تسمم بها عقول القراء؟ ألا إنها وبال عليك مادامت تؤدى بك إلى تلك المجاعة التى لاتجد لها سداً إلا من بضاعة أرمل بائسة مثلى . فقال الكتبي مبتهلاً متوسلا :

— شقى بطنى !

— لا أشق بطنك ، فلست فى حاجة إلى تمكير جو دكانى بما تأكل . اغرب عن عينى ! صباح الخير أيها الشاب ، لاعليك ، فإننى أمزح مع موسيو كنزلو كعادتى لأدخل عليه السرور فيحسن هضم ما أكل ، فأرتج على شارل الذى دار بعينه فى الدكان كمن يبحث عن شىء ، فقالت :

— أظنك تبحث عن ليونى . إنها خرجت منذ الصباح لتشترى مؤونة للشوكولاته التى نعدها لعيد البنتكوت . كيف حال معلمك ؟ إن لدىّ مقعداً قديماً أريد تنجيده خير تنجيد وأثمنه فهو من تراث المرحوم زوجى ، وهنا تبللت عيناها بالدموع ، فنظرت إلى كنزلو الكتبي الذى مازال واقفاً مسموراً وقد قيده الخجل ، وقالت :

— بعد العصر ياموسيو كنزلو ، شرفنا لتأكل مايحلو لك من شطائر اليابان المحشوة بالقشدة ومُغْرقة فى روم جامايكا العتيق . فابتسم كنزلو وقال

— وعد الحر دين عليه ، إلى اللقاء يامدام دولاك أوريفوار أيها الشاب ، ياله من مزاح !

وخرج كالفار المسلوخ ، يتحامل على ساقيه النحيلتين ، ويكشف عن صلعة حمراء كباطن المقلى المصنوعة من نحاس فيردان ، فضحك شارل ملء شدقيه والتفتت البجمة إليه ، وقالت :

— أدخل ، أدخل أيها الشاب . ودع عنك مارأيت وسمعت بينى وبين هذا الحمار الذى يحمل أسفاراً . وإياك أن تنقل حرفاً مما سمعت إلى ليونى أو غيرها ، لأننى أفكر فى تزويجها من ابن هذا الكتبي العتيق ، لأنهم أغنياء ، وأحب قبل الزفاف أن أخضع حماها بالإذلال والإرهاب ، حتى إذا تصاهرنا كان هذا الكتبي أطوع لى من كلبى

(١) صفة المنشد الأول

ليبين ؟ وضحكت فبانت أسنانها المحطمة وقالت .

— أتعلم أن موسيو كابوش عمدة المدينة ، أمر بتحرير محضر مخالفة ضدي لأنني أطلقت اسم محافظ مقاطعة السين على هذا الكلب الأمين ! ولكن فطيرة ضخمة مشبعة بالزبدة ومحشوة بالكريز أخمدت أنفاس كوميسير البوليس كليمان . ومحت محضر المخالفة كما لو أنك أرسلت خطابا ابريد! الحلوى والداهنة تفسد أحسن الدم . فضحك شارل من حديث المرأة المزوج بالبلاهة وقال لها :

— أفهم جيداً أن « الفليك » يُباعون بأبخس الأثمان .

— آه الفليك [1] يالهم من فحول ذباب ! لو كانت ليوني هنا كنت أذقتك طعم تلك الشوكولاته الفاخرة . ولكن غداً لناظرها قريب . . والملبس الفاخر هدية البنتكوت . فابتسم شارل وهو يحس طعم الشوكولاته في فمه ، ويذكر قبلات الفتاة .

ومد يده إلى جيبه ليتأكد أن علبة الملبس الفاخر لم تغادره ، ولم تنفذ اليها عين تلك التاجرة الماكرة . وقال : شكراً لك سلفاً وسأمر ببيتك لأنقل ذلك المقعد المزيز ، وأدار ظهره وهو يصفر ، حتى إذا بلغ دار السيدة ديلورم ، فتحت له الباب فتاة في الثامنة عشرة ولما أبصرت الغلام الألماني الأهيف الجميل فتحت عينيها وحدقت فيه دهشة وعجباً ، وعراه هو من الدهشة لحسنها ماعراها ، فحدق فيها وقد ذهل عما كان يجب عليه من نزع قلنسوته تحية واحتراماً فوقف شاخص البصر إلى نضرة جمالها ثم أفاق هي قبله فقالت له : من أنت ؟

فأجاب : صبي الحلواني ، أعني الحلوانية « البجعة » مدام كرنك دولاك . وأخرج من جيبه علبة الملبس قائلا :

— ولما كانت عادتها أن تبعث إلى خيرة عملائها بعينات من الملبس الفاخر الذي تصنعه خصيصاً لعيد البنتكوت . ومد يده بالعلبة فتناولتها الفتاة وفتحتها فقال : تذوق يا آنستي ، تذوقي فان نجاح محلنا قائم على مبدأ « من ذاق عرف » وهو شعارنا . « ذوقي وقارني » . فتناولت الفتاة بينانها في رشاقة فائنة ملبسة ووضعتها بين شفتيها المرجانيتين ثم افتر ثغرها عن ابتسامة زادتها في نظر الصبي حسناً على حسنها

وقالت : هل ندفع لك ثمناً لهذه العلبة ؟

فضحك قائلا : هذه هدية وعينة ...

فقالت : شكراً لك وسأقنع عمتي بشراء الحلوى من محلكم وهمت بمواربة الباب فاستدرك شارل قائلا :

— عفواً . وأمراً آخر نسيته

— وهو ؟

— إنني أيضاً صبي المنجد موسيو أرمان موتون أعني أنني أزاول مهنتين بل ثلاثاً

فابتسمت الفتاة وقالت بين مصدقة ومكذبة :

— يالك من فتى ذي صناعات عدة !

— الحياة تقتضي الجهاد في سبيل العيش . إنني منجد في الصباح ، وحلواني بعد الغروب . فصدقته الفتاة وأشفقت عليه وسألته :

— أتريد شيئاً من متاع المنزل أم جئت بعينة أخرى من الأثاث الجديد ؟

فأجاب مداعباً : وهل في المنزل شيء هو أحلى وأشهى من ذلك المتاع الذي أراه الآن ماثلا أمامي ؟

(١) الشرطي

فضربت الفتاة بقدمها غضباً واغتياظاً من جرأة الفتى وخفته، واحمر وجهها قليلا، فأدرك شارل أنها من الصنف الذي يكره المداعبة وتذكر أحضان حبيبته المواتية ليوني الذي ألهبت وجهه منذ هنيهة بحر أنفاسها ، فمحا صورة الحب السريع من ذهنه وزاده غيظ الفتاة الماثلة أمامه تمادياً فى مداعبتها فقال:

— إذا كان فى متاعك خلل أو فساد تريدين إصلاحه فاعلمى أن متاع الفتيات ليس مما نعنى باصلاحه ، فاطلبي لمتاعك مصلحاً آخر ! وإنما جئت ههنا بأمر معلمى الحلوانى . وسلمت إليك هديته ، ثم بأمر معلمى النجد الموسيو أرمان موتون لأحمل إليه من مدام ديلورم كرسياً كانت خبرته أنها فى حاجة إلى تنجيده ، فأين هو ؟

فنصبت الفتاة رأسها فى أنفة وكبرياء وفتحت له الباب وسعت به إلى قاعة الاستقبال ثم أومأت إلي كرسى فيه خرق دون أن تنبس ببنت شفة ، ففحص شارل الكرسى بدقة ، ثم حمله على عاتقه وسار إلى الباب ، حتى إذا بلغه التفت وراءه ونظر إلى الفتاة وقال :

— خيراً ؟

فقالت بكبرياء : ما ذا تريد ؟

فأجابها شارل بابتسامة معنوية أجابته عليها باحمرار وجنتيها ثم قال :

— إنى بخير والحمد لله وأرجو أن تكونى بخير أيضاً . فضحكت الفتاة ضحكة خبيثة عالية وقالت :

— إنك أظرف حلواني وأعبط من رأيت من النجدين فى حياتى . أولى لك أن تذهب فى الحال وإلا ناديت عمتى وإنها لشديدة على أمثالك المستهترين

فأسرع شارل الهبوط فى سلم الباب وقال :

— أرجو أن تكون عمتك بخير أيضاً

فلما بلغ أسفل الدرج قال :

— وإني لا أعلم كيف احتفظت بعلبة الملبس ورفضت ملاطفتى . ولكنه لم يسمع سوى صفقة الباب وراءه

وسار قدماً وهو يُصفِّر ، إلى أن بلغ المنزل رقم ٥ شارع بواساك حيث كانت مدام جاكميه معشوقته تنتظره ، ففتحت له الباب هاشة باشة فقد كان الفتى حبيب قلبها فى غيبة زوجها الضخم فى معمل الساعات فى مونشا إحدى قرى النهر التى شيدت فيها مصانع الآلات الدقيقة ، وكانت المرأة آمنة عودة الزوج طول النهار . فغلقت الأبواب وأنزلت الكرسى عن كاهل معشوقها ، وكانت امرأة قصيرة القامة ذات محاسن وفتنة تدفع إلى الصبى ثمن غرامه السرى كل ما تدخره نفقة البيت وما تسرقه من كيس زوجها أثناء غطيطه

ولم تكن تصبر عن لقاء شارل يوماً واحداً فكان يلهب عاطفته بين أحضان ليونى ، ليطفئ ناره عند جاكميه القصيرة البادنة . وسرعان ما خلعت عنه ثيابه وألبسته ثياب التفضل من صوان زوجها ومدت له مائدة رداحاً زاخرة بالدجاج المشوى — يوليه دوريه دى بريش —[1] وسمك الرون المقلى ، ولحم عجل حنيذ محمر ، وحمص أخضر بالزبد والسكر وسربى المشمش التى كانت تجيد صنعها —

(١) نوع من الدجاج الفخم يتقن أهل ليون تربيته وطهيه

واعتذرت له عن بعض الفطير المحشو بلحم الخنزير وشحمه . فأكل الفتى أكلة الشره وشرب من نبيذ جراف الذهبي حتى روى وشبع واستعد للقيلولة

فسألته — أين كنت يا روحي ؟

أجاب — في العمل ، العمل الشاق المضني

قالت — هل كنت تفكر فيّ ؟

قال — طبعاً ؛ وفي من سواك أفكر ؟

قالت — أنت معبودي ، وحبك المنيف غذاء حياتي — أين تقضي أجازة البنتكوت ؟

قال — هنا في ليون ، ما لم تحنّ أسرتي شوقاً إلي !

قالت — لقد أعددت لك مفاجأة سارة فحصلت على إذن من البغل زوجي ، لأزور أهلي في هوت سافوا، وفي الحق أعددت تذكرتين لنذهب معاً إلى قرية « إيل يارب » فنمرح أياماً وننعم بالحب . وقد ادخرت مائة فرنك ننفقها معاً في فسحتنا المرتقبة

قال : كيف أسافر وأنا لا أملك غير هذه الثياب الرثة ووالدي لا يرسل إليّ مالاً ظنا منه أن ارمان موتون يغدق عليّ النِعَم ويدفع لي من ثروة قارون . فأطرقت جاكيه الولهانة ثم قالت :

— لقد فكرت في ذلك أيضاً ، فأعددت لك بدلة كاملة من صنع لابيل جاردينيير ، أخذتها على حساب زوجي وأصلحتها على قياسك عند طرازي يجهلني في شارع جامبتا ، فلا يشك في غايتي من تقصير ساق سراويلاتها ، وتوسيع أكمامها ، فانك أعرض صدراً من الرجل وأقصر قامة .

وبعد الظهر بثلاث ساعات خرج شارل من بيت عشيقته يحمل الكرسي وعاد إلى الدكان فلم يجد معلمه الذي ذهب إلى أهله يتمطى بعد طول انتظار الصبي ، فوضع شارل الكرسي في غرفة الأمتعة المخلة واستأنف عمله في مرح وهو يصفر كعادته . فمرت بذهنه صور شتى مما شغل خياله منذ الصباح؛ فها هي ذي ليوني تقبله وتتفحه بالهدايا ثم البجعة ، والكتبي الشره ، ثم الفتاة التي تهددته بصمتها . . ثم المرأة الناضجة التي أطعمته ومتعته وأعدت له الكسوة والنزهة على حساب بعلها وبغلها .

ولكن محاسن الفتاة الثانية جعلت تتراءى لعين خياله ، وكان وجها فتانا يحمل دلائل الدلال والتيه وآيات الزهو والكبرياء ، وقد لذ الفتى أثناء هذه التخيلات ما كان يبدو على ذلك الوجه من العبوس عند سماع أمازيحه التي كانت تمدها الفتاة ضرباً من الاجتراء على مقامها السامي من صبي حلواني أو صبي منجد حقير مثله كما وهمت وفهمت. فأكمل إصلاح مابيده في ظرف ساعة ومضى إلى المخزن لاختيار القطعة التالية . وكان ثمّت عدة أمتعة قد لهج أصحابها وألحوا في سرعة إصلاحها ، ولكن شارل ضرب عن جميعها صفحاً وأخذ الكرسي المخروق فحمله إلى مائدة شغله . ولم يكن في نيته أن يبدأ بإصلاحه ولكنه تلذذ بمجرد النظر إليه من أجل الحسناء ذات الوجه المليح العابس . وبينما هو يتأمل الخرق الذي به ويضغط على لوالبه ، أخذت عينه ورقة صغيرة كانت قد سقطت في الثقب الذي في ظهر الكرسي فتناولها فاذا بها حوالة مالية بعشرة آلاف فرنك تصرف لحاملها ، فأخذها

هادئاً وأعاد تلاوتها وهو لا يصدق نظره ثم وضعها في جيبه ثم بدا له غلاف رسالة معنونة بالعنوان الآتي « المناجم الزئبقية جولد نبرج وشركاؤه — المدير جورج دي ساكس » فدسها هي الأخرى في جيبه وآمن بأن الدهر يبتسم له حتى في الغربة .

وفي تلك اللحظة عاد موسيو أرمان موتون متجهماً ؛ فلما رآه انفجر فيه بأقذع السباب على تلاعبه بوقته وتركه في انتظاره بدون غداء إلى مابعد الظهر بساعتين في سبيل حمل كرسي مخروق. فوقف شارل باسماً وقال له :

— على رسلك يامعلمي . إن قبلت عذري فخيراً وكرامة ، وإلا فوفر لي بقية أجري وسرحني باحسان أحمد لك حسن العشرة . فخبت نار غضب النجد وقال: أتتركني ياشارل وقد علمتك خير ماقي الصنعة ؟ قال : إني منصرف ؛ فان حياة النجدين لا تروقني . قال : لا عليك ، فمعذرة . قال شارل : سأنصرف ساعة حتى يصفو دمي بعد كدره ، السلام عليك . وخرج لا يلوي على شيء حتى بلغ بيت جاكيه وكانت لاتزال كليلة من أثر عناقه ، حالة بما كان بينها وبينه من حلو الغرام ففتحت له وقالت:

— إني قديسة ! فقد اشتهيتك تشاربني الشاي وتقاسمني تلك الكمكة المحشوة بالزبيب والفستق . فنزل على إرادتها ومزج الأقداح بالتقبيل والمداعبة ، حتى استلانت له فنهض ينظر في المرآة ثم قال لها : إني مسافر إلى قريتي حتما . ففجعت المرأة وذهلت . فقال : لقد بلغت حالي من الرثاثة مايجعل كل من يراني يحتقرني فلا بدلي من ثياب قشيبة وساعة وسلسلة وأزرار ودبابيس من فضة وذهب . فضحكت المرأة وقالت : انتظر ! ثم عادت فرحة بالثياب الجديدة وحملت من صندوق زوجها وهو ساعاتي وصائغ كل ما طلب ، وألحت عليه أن يلبس الحلل ويتحلى بما تاقت إليه نفسه من متاع زوجها معللة نفسها بنسيانه ما أودع من مصوغ . فتأبى شارل هنيهة ثم فعل فبدا كأبناء السراة ذوي العز والنعمة وسارع إلى تركها واعداً إياها بالعود غداة غد كعادته . وفي سرعة البرق بلغ مقر « سوسيتيه چنرال » وهو مصرف قومي لرجال الأعمال ، فرحبوا به ، وأبرز لهم الحوالة ، فصرفوا له قيمتها ، وعرضوا عليه أن يحتفظوا بها لحسابه لقاء دفتر صكوك يجعل المال رهين إشارته وتوقيعه ، فقبل بعد أن قبض مئة فرنك وهي تعدل مرتبه عند النجد شهرين وعاد إلى بيته فخلع الرداء الجديد ولبس ثياب العمل وقصد إلى مقهى تونون ليشرب فنجاناً من القهوة . وأخرج الرسالة التي وجدها مع الحوالة في خرق الكرسي فاذا فيها

عزيزتي روزموند

ليت شعري كيف أثر في حسنك هذا الأثر البالغ ! ماذا أحدثت ألحاظك في حشاي من الجراح والأوصاب ؟ وما الذي قالته عيناك لقلبي فأجاب ؟ هل نلتقي في يوم الأربعاء المقبل بعد ظهره ، في عين المكان والأوان اللذين تلاقينا فيهما آنفا فانعم بحديثك العذب ؟

المخلص

جورج

فقطب شارل جبينه ووضع الرسالة في جيبه . ولما عاد إلى الدكان استمر مقطباً ونسي صغيره ،

ولحن لوهنجرن الذى كان يكرره، فلفيه المعلم موتون بالترحاب وقال له :

— مايرضيك ياشارل فأنا كفيل بنفاذه . أجاب « أن تزيد راتبي إلى مائة وخمسين فرنكا فى الشهر ، وأن تدفع لى مقدما مرتب شهرين لأصلح من شأنى، وأن تمنحنى أجازة ثلاثة أيام أقضيها فى تريض خاطرى » وهو يعلم أنها شروط قاسية لن يرضخ لها المعلم لبخله وشدة حرصه، ولكنه جعلها محكمة ليصرفه مستغنياً عن خدمته . فتنهد موتون وقال : إنها لأقسى من شروط سيدان التى أملاها بيسمارك على وطننا . . . ولكننى أقبلها. ثم دفع له ما طلب لأنه كان ينتوى أن يزوجه من ابنته لورا ويترك له المتجر والمصنع ، ليتم آخر حياته بالراحة والغنى واستمرار اسمه معلقاً بأعلى الدكان حرصاً على شهرته وعملائه . ولكنه يضمر ذلك ولا يبوح به ، لئلا يفسد أخلاق عامله الذى يجهل منشأه .

فعاد شارل إلى عمله فى كرسي آخر وترك المقعد المخروق ينعى من خرمه، ودس فيه وثيقة المال ووثيقة الهوى بعد أن نال حظه منهما وسهلا له بداية المعركة ليفوز بعروسه .

وبعد لحظة ظهرت الفتاة الحسناء العبوس فى عتبة الدكان ، فقال له المعلم :

— شارل ! هذه ابنة شقيق مدام ديلورم تريد أن تكلمك كلمة . فاحتفظ شارل بثباته ، وهو الفاجر الواثق من نفسه الخبير بأخلاق النساء . وكانت الفتاة مرتبكة مضطربة يذهب لونها ويجيء فقالت للفتى :

— أظنك قد . . . أريد أن أقول لك هل عثرت على شيء فى الكرسى الذى أخذته اليوم من دار عمتى ؟ فنظر شارل تلقاء المعلم فوجده مكبا على شيء يصلحه غافلا عنهما فقال : انى منذ حملته على كاهلى لم أره ولم ألمسه فتفضلى بأخذه ان شئت أو فحصه إن أردت . ثم عاد إلى عمله . فقالت بكبرياء وعظمة : انه خطاب لا أكثر ولا أقل فأعطنيه . فقال: انتظرى لحظة ، ودخل إلى غرفة المخزن وعاد يحمل الكرسي بعد أن دس الخطاب فى الخرق أعمق مايكون ،ووضع يده فأخرج الغلاف واستبقاه فى يده

فقالت : اعطنى الرسالة ، فهز رأسه نفياً وإباء فقالت : إذا أبيت تسليم هذا الخطاب شكوتك إلى مدام ديلورم عمتى

فقال شارل بثبات ورزانة : وإذا سلمته اليك فسأبلغ الأمر إلى مسامع عمتك مدام ديلورم . ولم يكد يتم قوله هذا حتى راعه وآلمه ما أبصر من شدة اصفرار الفتاة وامتقاع لونها . فالتفت إلى مسيو موتون معلمه وقال :

— إن السيدة الصغيرة تريد أن أرافقها إلى دارها لتطلعنى على شيء من أنائه وسأعود بعد برهة قصيرة . فهز المعلم رأسه موافقة دون أن يرفعه عن عمله .

وغادر شارل الدكان تتبعه الفتاة مستكينة متواضعة، فلما بلغ زقاق جوادى فيفرو كانت الشمس قد آذنت بالغروب وقف وواجه الفتاة وكان يشرف عليها بمقدار قدم لطول قامته . وقال لها : اياك أن تحاولى انتزاع الرسالة من يدى لئلا تحدث فضيحة شنعاء أمام المارة ، وتدلى بذلك على سوء نيتك فتذهبى بالبقية الباقية من احترامى وعطفى عليك . فأومأت برأسها علامة الرضى وهى تكاد تنفجر غيظاً من تحكمه، ففتح الرسالة وقرأها بصوت عال كمن

يقع نظره عليها لأول وهلة . ثم قال مستفهما :

— اسم حضرتك روزموند ؟ فقالت مغضبة ليس هذا من شأنك. فقال مبتسما : إذا كنت تأبين أن تجيبي عن سؤالي هذا فسأعرف الجواب من حضرة عمتك . فقالت : اسمي روزموند . فرنا إليها بنظرات لينة رقيقة ملؤها الحب والطرب وقد أذهله ما هو فيه من اللذة عن مشاهدة ماصبغ وجهها إذ ذاك من حمرة الغيظ والوجل . ثم قال :

— إذن اعلمي يا روزموند أني لست بمعطيك هذه الرسالة . كلا ! لاتعبسي ولا تقطبي جبينك ولا تظني أني من قبيل ذلك الفتى جورج صاحب الرسالة . ومهما يكن جورج هذا فانه وغد خسيس وكذاب أشر وما خطا به إلا إفك وبهتان. سأبحث عنه فأنظر بنفسي أي امرىء هو، هل يصلح أن يكون زوجاً لمثلك . لاتؤاخذيني في فضولي وتطفلي على أسرارك فاني مدفوع بأقوى عوامل النفس إلى الاهتمام بشأنك ؛ فاذا وجدته كفؤاً لك — ولا إخاله — فسأعتذر له عن سوء ظني ثم أحضر حفلة زفافك بثياب قشيبة وهدية من الحلوانى . . ولكن هاتفاً يهتف بي من أعماق نفسي انه وغد خسيس ونذل جبان وأحمق غبي . كذلك شعوري وهو شعور صادق قد ورثته عن أمي . فدعيني وتنفيذ خطتي وإمضاء عزيمتي فانك إن حاولت مني فسأذهب تواً لعمتك وأقدم لها الرسالة قائلا إني عثرت عليها في الكرمى . فلم يكن من الفتاة إلا أنها شرعت تبكي وتنتحب وتمزق منديلها بثنايا الجميلة من شدة القهر والغيظ والعجز عن الانتقام فقال لها : لاتؤذي عينيك الجميلتين بالبكاء فوحق العذراء ما قصدت إلى إيلامك وإيذاء عواطفك

فقالت له وهي تحرق الأرم: إنك لفظ غليظ القلب. أعطني الرسالة من فضلك . انها ملكي لاملكك .

— فقال شارل شفارز : إني أستملحك وأستظرفك وإني معجب بمحاسنك ، وسيأتي يوم تعلمين فيه حقيقة مقصدي ، وهو إيصال النفع إليك ورد الأذى عنك ؛ فاذا خشيت عمتك إلى هذ الحد فاني أعدك ألا أوصل الرسالة إليها أبداً ولكني أذهب معك إلى أقرب أقسام الشرطة ، وهناك أسلم الرسالة . فنصبت الفتاة قامتها وقذفت الفتى الألماني بنظرة حشدت فيها كل ما تستطيعه طبيعتها من البغضاء والكراهية وانطلقت في سبيلها دون أن تفوه بكلمة أخري. فراقبها وحك رأسه، ولكنه لم يلبث أن سرت إلي وجهه دلائل العزم والاصرار الذي قد ورثه أهل جرمانيا قاطبة عن أجدادهم القدماء، فمضى تواً إلى القنصلية الألمانية بشارع كي دي برتو وقال إنه يريد لقاء القنصل للتو واللحظة ، فما لبث أن خرج إليه القنصل من مكتبه الخاص فدنا منه شارل وأسر إليه كلمة في أذنه ، فأجابه القنصل : كلا ! فأخرج شارل من جيبه رسالة وأعطاها للقنصل فقرأها الثاني بروية وأعادها إلى شارل وقال « لابأس ! »

عند ذلك ذهب شارل إلى مكتب شركة المناجم الزئبقية. جورج دي ساكس وشركاؤه، فقال صبي المكتب لشارل : المسيو جورج دي ساكس ليس ههنا ، ولعلك واجده في قهوة ريش في الشارع المجاور . فمضى شارل إلى القهوة وعقد صحبة مع النادل فأتحفه بكأس من الراح وألطفه بلفيفة من تبغ الزاس وأقبل عليه يحادثه في حالة الطقس وأخطار الحرب المرتقبة وأسعار الحرير وحوادث القمس

ثم شرع يستفهم منه عن أسماء اللاعبين بالورق ، وكانوا جالسين بناحية من المكان فكان ممن سماهم النادل جورج دى ساكس، فاذا به كما كان قد صوره كارل فى مخيلته تماما — صغير نحيف حسن الهيأة ولكنه ضعيف البنية أصفر الوجه. وقال النادل : إن موسيو جورج هذا على ضعفه ونحوله وصفرته زير نساء عريق وله على الفتيات سلطان عظيم، فهن يتزاحمن عليه ويتهافتن. إنه غنى .. وخداع . وانتظر شارل حتى فرغ جورج من اللعب والخسارة لأنه سيء الحظ فى الورق ، حسن البخت فى النساء [1] — ثم استدعاه ووقف به ناحية وقال له :

جئت من ستراز بورج وما زلت أبحث عن صنف جيد من الزئبق الأندلسى ، أرسله هنالك ، وإنى أعلم أن ليس من اللائق أن أبتك بطلبي هذا فى مثل هذا المكان ولكنى لا آتى هنا كل يوم وقد.. فقال جورج ببشاشة التاجر وحفاوة الثرى المستزيد :

عفواً ياسيدى، أنا فى خدمة عملائى فى كل آن ومكان ، تفضل بالجلوس ، ماذا تشرب ؟ لا بد أن تكون أنبذة كروم الراين قد أوحشتك، إنى أشربها بلذة . ثم تناقشا ماليا فى الزئبق وأسعاره ونفقات شحنه ونسبة «العمولة» ، وقال شارل إنه سينظر فى الأمر ثم يخبره بالنتيجة فيما بعد . وقد أساء شارل وآذاه وآلمه أنه بدأ يشعر بشيء من الميل إلى جورج والاستئناس به واستظرافه، وأن جورج بدأ كذلك يظهر مثل هذه العاطفة نحوه وقال جورج دى ساكس:

— حبذا لو تعشينا الليلة معاً ! إنى لأعرف مطعماً شهيراً بجودة دجاجه وحسن نبيذه . فقبل شارل دعوته والتمس منه ساعة لتبديل ثيابه وتواعدا على اللقاء فى نفس القهوة التى اجتمعا بها . وعاد شارل متطرباً مجلواً متحلياً طروباً وبانت عليه نعمة معشوقته مدام جاكيه وبذلها وهو بعلها . فانتقلا إلى المطعم فى سيارة جورج ، وقبل فراغهما من الطعام خبره دى ساكس أنه مستعد أن يقدم إليه كل ما لديه من الزئبق بأسعاره الأصيلة وأردف قوله « أى هيرشارل ! إنك أحب إلىّ من أن أربح من ورائك أدنى شيء وبودى ألا أفارقك أبداً . فهل لك فى الركوب معى الليلة للنزهة فانى أعرف فتاتين لاتأبيان أن تصحبانا فنقضي معهما برهة من الزمن. فذهبا للنزهة مع الفاتنتين وكانتا مليحتين، ثم اقترح شارل أثناء النزهة الذهاب إلى دار الصور المتحركة ولكن دى ساكس هز رأسه نفياً وهمس فى أذن شارل عند أول فرصة قائلا :

— لاتقترح أدنى شيء من هذا القبيل فانى أعرف فتاتين أخريين أفضل أن نأخذهما إلى دار السينما ، لأنهما أليق بذلك المكان وأبهر للعيون فى الضوء وأمتع لنا فى حلكة الظلام . وكذلك ذهبا إلى دار السينما ووفى دى ساكس بوعده فاستحضر الفتاتين. وتغيب شارل عن دكان معلمه المنجد ثلاثة أيام قضاها مع صديقه الثرثار رئيس شركة الزئبق . وفى كل ساعة يقدم له هذا الصديق فتاة جديدة ، وكل ساعة يزداد شغفاً بشارل الذى نسي ليونى وجاكيه وازداد تعلقاً بروزموند . وقد سهل على شارل أن يستكشف السر فى ميل الفتيات الى صديقه ، وذلك أن جورج دى ساكس كان طلقاً متهللا لاتفارق شفتيه ابتسامة البشر ولا ينطفئ فى أسارير وجهه نور البشاشة مع كثرة الملق والتملق

(١) مثل فرنسي سائر

والاطراء، وكانت له حيلة إلى أقناع كل واحدة أنها خليلته ومعشوقته دون غيرها . فقال مرة لشارل : إني لا أخلو من النساء ساعة ، وإني لأجدني مدفوعا إلى مغازلتهن اندفاعي إلى الأكل والشرب، لا أستطيع الامتناع عن الأولى إلا إذا أطقتُ الامتناع عن الثانية .

فقال شارل : ولكن ماذا تصنع إذا تزوجت وقر قرارك ؟ فحدق جورج فى وجه شارل قائلا : أتزوج ؟ إني متزوج، ألم تعلم بذلك ؟ لقد مضت زوجتي إلى قرية مونبيان لتزور أمها وسأقدمك اليها عند عودتها . وإن لها زمرة من الأتراب الحسان والصواحب الغوانى كأنهن الربرب أو سرب الما لايزلن يحمن حول دارنا يرفرفن علينا . فقهقه شارل ضاحكا ثم أمعنا فى الشراب فقدم إلى دى ساكس الرسالة التى كان وجدها فى الكرسى فقرأها جورج وشرع يمسح جبينه بيده كالذى يحاول أن يتذكر شيئاً قد نسيه ثم قال :

لقد نسيت اسمها ولقبها . خبرني كيف حصلت على هذه الرسالة ؟ فأدرك شارل قلة اهتمامه بشأن روزموند وذهوله ألبتة عن كل ماحدث بينه وبينها . وسأله جورج « ولكن كيف وجدت الرسالة ؟ قال شارل: سأخبرك فى وقت آخر، ولكني أطلب إليك الآن أن تكتب لها رسالة أخري وتعطيني إياها لأوصلها إليها فأريح رهانا عقدته فى مسألة مسلية، أتوافق على ذلك؟ فقال جورج وهو يترنح : ولِمَ لا ياصديق ؟ وسيان عندى أن أقول لها إنها أحب الناس إلى أو أقول لها بُعداً لك وعليك العفاء. هلم أملِ على ماتشاء أيها الألمانى الظريف .

* * *

وردت على مدام ديلورم عمة الفتاة روزموند رسالة فجعلت تقلبها فى يديها مراراً عدة ثم قالت : لا أفهم ما ذا فى هذه الرسالة فان أسرة برادنبور تدعونا إلى الغداء بعد ما نسونا زمناً طويلا ، وقد دعوا أيضاً القنصل الألمانى وجميع أصحابهم القدم . فى أى حلة تذهبين إلى المأدبة ياروزموند ؟

* * *

قالت مدام برادنبور : ما أشد فرحتى بك ياروزموند ! لم تكوني آخر عهدى بك إلا طفلة ضئيلة . هاك قنصل ألمانيا يا روز موند يذوب شوقاً لرؤيتك، وهاك موسيو شارل شفارز. فهمس شارل فى أذن الفتاة قائلا :

— سأرد إليك الرسالة متى شئت . فحطت الفتاة شفتيها تلك المطة الحلوة المعهودة وعبست تلك العبسة المستملحة وقال شارل : إن الرسالة ليست معى الآن ولكن معى رسالة أخري من الذى كتب لك الأولى فبدا الغضب على وجه الفتاة . وقالت :

— لا أدرى لماذا أنت هنا الآن ؟ ولا يهمنى تهديد صبي حلوانى أو صبي منجد وضيع . ولكن إذا كنت تحسب أن من الشرف والمروءة أن تتدخل فى شؤوني وتقاتل رجلا من الناس لتغلبه فترغمه على أن يكتب إلى رسالة سفه وخسة ودناءة فاسمح لى أن أخبرك أنك رجل شاذ غريب الأطوار. فقال شارل :

— أقاتل رجلا ؟ أتريدين موسيو جورج دى ساكس ؟ عجباً لك ! إني أعشق الرجل . وهنا تدخل القنصل فجأة فصاح إلى عمة روز موند :

— أى مدام ديلورم ! ما رأيك فى هذا الفتى (يريد شارل) إن أباه من أغنى تجار الأخشاب فى

الغابة السوداء وأشهرهم فى بلاد الزاس وقد أراد أن يصقل ابنه ويعلمه فن التنجيد لضرورة تجارته ، ولكن شارل أنف أن يزاول هذه المهنة فى وطنه ، ولذا قدم إلى هذا البلد فأخفى نفسه فى دكانة منجد صناع ، ولكنها مستورة عن الأنظار حيث يأمن ألا يعثر عليه أحد . وبينا هو كذلك إذا به قدخرج بنتة من حجره فانقض على وسألني المعونة فى مسألة غرامية اعتماداً على ما بينى وبين أبيه من الصداقة والمودة فخبرينى يا مدام ديلورم رأيك فى الفتى وفيما يرمى إليه ويطمح

فبدت على مدام ديلورم دلائل الحيرة والارتباك ، ولكن مسيو براد نبور رب البيت وصاحب المأدبة شاهد ماظهر إذ ذاك على وجه روز موند من شواهد السرور والفرح فى احمرار وجنتيها ووميض عينيها وبريق ثغرها فأخرج مفتاحاً من جيبه وأعطاه لخازن الراح وقال له :

— هات لنا أجود ما لديك من السلاف نشربه فى نخب العروسين

فالت مدام ديلورم بشارل جانباً وقالت : أصارحك بأن بائنة روز موند وهى حوالة بعشرة آلاف فرنك قد فقدت منى — وبلل الدمع عينيها — وكانت كل ما تركه شقيقى لكريمته فما حيلتى ؟

فأخرج شارل من جيبه حوالة باسم روز موند على مصرف سوسيتيه جنرال بأن يوفروا لها باسمها مبلغ ثلاثين ألف فرنك نقداً فقالت العجوز :

— سيدى ! فقال لها : لقد وجدت البائنة فى خرق الكرمى المبارك الذى لا يزال عند معلمى أرمان موتون وقد آليت على نفسى ألا يصلحه أحد سواي وسأحتفظ به حتى يراه أولادنا فيعلموا أنه سبب سعادتى وعلة وجودهم . فضحكت روزموند وقالت : وسأحتفظ أنا كذلك بعلبة من الملبس الذى يصنع لعيد بنتكوت

* * *

ودعا شارل إلى حفلة زفافه « البجمة » وليونى والمنجدوجاكيه والكتبى كنزلو وجورج دى ساكس وقدم لكل منهم هدية لائقة ، ولما كان ألمانياً فاجراً قادراً على القهر والحيلة فقد أرضى كلا من مدعويه بهمسة فى أذنه فقنعوا من مودته بوعوده ، ما عدا المحبة المفتونة جاكيه البادنة الشقراء التى وثقت أن زفافه سيحرمها غرامه . فهمس فى أذنها :

— لا تنسى أننا سنقضى معاً أجازة البنتكوت

محمد لطفى جمعة

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

ص

٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة العشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البذور المصرية بميدان ابراهيم باشا